ما الذي تعنيه الضيافة اليوم؟

إيف شارل زركا
ترجمة: الزواوي بغوره

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

ما الذي تعنيه الضيافة اليوم؟[1]

تأليف: **إيف شارل زركا**
ترجمة: **الزواوي بغورة**[2]

1- Zarka, Yves Charles, Penser l>hospitalité aujourd>hui, in Cités, n°68, 2016, p. 3 - 8

2- أكاديمي ومترجم من الجزائر.

«ففي كلّ مكان يندر فيه الغرباء يحسن قبولهم، ولا شيء يجعل الرجل أكثر ضيافة من عدم الاحتياج إليها غالباً، فكثرة الضيوف هي التي تقضي على الضيافة».[1]

جان جاك روسو

«ولا شيء يجعل الرجل أكثر ضيافة من عدم الاحتياج إليها غالباً». إنَّ هذه المعاينة، التي أجراها روسو، بغرض التنديد بحقبة بدأت تضيع فيها الضيافة مع التطوُّر في الحضارة والتجارة والثروة. إنَّ هذه الضيافة تتميز بالهشاشة والمفارقة. تظهر هشاشة الضيافة في إمكانيَّة تحوُّلها بسرعة إلى شيء مضاد لها، ألا وهو عدم الضيافة أو العداوة، وسأعود إلى هذا لاحقاً. أمَّا المفارقة، فتظهر في اقتران الضيافة بالخيرات التي نمتلكها. تمارس الضيافة أكثر لدى الفقراء، وعند أولئك الذين يعيشون على الكفاف؛ وذلك بخلاف أولئك الذين يملكون أشياء كثيرة وزائدة. إنَّ الاحتياج يجعل الفرد أكثر تعاطفاً وإحساساً بألم ومعاناة أولئك الذين هم في وضعيَّة مزرية أكثر: المنفيون، المستأصلون، المطرودون، المبعدون، اللاجئون. فبالإضافة إلى الصعوبات التي يعانون منها، يجدون أنفسهم من دون معالم لغويَّة وثقافيَّة واجتماعيَّة ومؤسَّساتيَّة تضمن الاعتراف بهم. تُحدّد الضيافة أفقاً خارج عمليات الحساب والتبادل والتواصل، وأكثر من هذا خارج الإكراهات الاقتصاديَّة. تنتمي الضيافة إلى العطاء الكريم.

من هنا نفهم روسو، عندما يضيف:

«على المرء أن يخفَّ إلى مساعدة المحتاجين، ولكن في المعاملات العاديَّة، المتواضَع عليها بين الناس، يجدر به أن يترك العطف الطبيعي وحسن التصرُّف يعملان عملهما دون أن يختلط بهذا الينبوع الصافي لشيء قابل للبيع والشراء يعكر هذا الينبوع ويفسده».[2]

ولكن قد تعني الضيافة الفساد:

1- Rousseau, Jean-Jacques, Emile, Livre V, in Œuvres complètes, vol. IV, Paris, Gallimard, coll. «Bibliothèque de la Pléiade», p.774

انظر كذلك:

روسو، جان جاك، إميل أو التربية، ترجمة عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، القاهرة - مصر، 2006، ص 770-771.

2- Rousseau, Jean-Jacques, Rêverie du promeneur solitaire, Neuvième promenade, op. cit, vol. I, P. 109.

انظر كذلك:

روسو، جان جاك، هواجس المتنزه المنفرد بنفسه، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانيَّة لترجمة الروائع، بيروت، 1983، المكتبة الشرقيَّة، بيروت - لبنان، 1986، ص 135. وكذلك: أحلام يقظة جوال منفرد، ترجمة ثريا توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2009، ص 199

«لقد لاحظت أنَّ أوروبا وحدها هي التي تبيع الضيافة؛ ففي آسيا كلها يقدّم لك السكن مجاناً، ولو أنَّ جميع أسباب الراحة لا تتوافر هناك للإنسان. ولكن، أليس كافياً أن يقول المرء في نفسه: أنا إنسان، ويضيفني إنسانيون؟ وإنَّما هي الإنسانيَّة الخالصة تشملني؛ فالذي ألقاه من الحرمان القليل لا أجد فيه مشقة إذا كان قلبي يصيب من المعاملة خيراً ممَّا يصيب منها جسدي».[3]

فهل حقاً ضاعت الضيافة في عالمنا الذي أصبح كلُّ شيء فيه يُقاس وفقاً لحساب اقتصادي ومالي، ووفقاً للمردوديَّة والإنتاجيَّة والفعاليَّة، ومن ثَمَّ وفقاً للمنافسة من أجل الربح واستبعاد الخسارة، وما يؤدي إليه من نزاعات داخل المجتمعات وفيما بينها؟ إنَّ هذه الفضيلة الخاصَّة باستقبال الآخر كانت في البداية فضيلة دينيَّة وأخلاقيَّة معروفة من قبل أغلبيَّة المجتمعات، وقديمة جدّاً، فهل استُبدل بها، على الأقل على مستوى الأمم، بُعد آخر أكثر تنظيماً وإدارة من قبل المجتمعات المعاصرة؛ وذلك من خلال إرساء جملة من الحقوق الاجتماعيَّة التي تهدف إلى ضمان وحماية المعوزين، وتحقيق قدر من التضامن في سياق يتَّسم بالاستبعاد الاجتماعي الذي أصاب فئات واسعة من السكان؟[4].

تأخذ المشكلة أبعاداً واسعة إذا ما تجاوزنا الإطار الوطني، وتوقفنا عند الآلام والمصائب التي تلحق بجزء مهمٍّ من الإنسانيَّة: الحروب الأهليَّة، والحروب بين الدول، والنزاعات العرقيَّة والدينيَّة الدامية، ومحاولات إخضاع شعوب كاملة، بل والقضاء عليها من قبل عصابات مسلحة تكون، في بعض الأحيان، أقوى من الدول المحليَّة، وتعمل على أن تفرض بالإكراه شريعة دينيَّة إسلاميَّة[5]. وليس هذا كلَّ شيء، يجب أن نضيف ظواهر أخرى نتحدث عنها قليلاً: هنالك عمليات الاحتكار والاستئثار بالأراضي من أجل الربح[6]، ونزع الملكيَّات المرتبط من خلال الإبعاد القسري للسكان الذين يستحيل أن يستمرُّوا في العيش في الأقطار التي وُلدوا فيها. إنَّ الهجرة الكبيرة والمعتبرة التي تعرفها أوروبا اليوم، تعود في أغلبها إلى هذه الأسباب والعوامل. وعليه، نسأل: ألم يتمَّ تخريب الضيافة التي يتوجَّب علينا القيام بها تجاه المحتاجين، وتدميرها، كما قال روسو، بوساطة «تدفق الضيوف»، والمخاوف الحقيقيَّة أو الخياليَّة التي يطرحها هذا العدد الهائل على مجتمعات الاستقبال؟

3- Ibid.

4- انظر الكتاب المتميز:

Gotman, Anne, Le Sens de l`hospitalité, Paris, PUF, 2001.

5- من الواضح أنَّ الكاتب هنا منحاز؛ لأنَّ فرض شريعة بالإكراه لم يتفرّد به الإسلاميون، لقد قامت به جماعات سياسيَّة ودينيَّة كثيرة، وخير مثال على ذلك الخمير الحمر، على سبيل المثال لا الحصر. (م)

6- انظر دراسة سارة فيجيل:

Vigile, Sara, Migration enviroumentals? Renouer le politique au Cœur du débat, in Cités, n°68, 2016, p 61 - 76

إنَّ الأزمة الحاليَّة للهجرة تعيد طرح معنى الضيافة عند أولئك الذين يخاطرون بحياتهم من أجل البقاء، أو بحثاً عن حياة أفضل. ولكنَّها تطرح أيضاً معنى الضيافة أمام جماهير لا تخضع للرقابة في أغلبيتها، وتتكوَّن من المهاجرين واللاجئين وطالبي اللجوء (إنَّ هذه الألفاظ تحيل إلى وقائع وإلى وضعيات قانونيَّة يجب التمييز بينها): الأفراد والعائلات والجماعات التي يختلط فيها من هو هارب من جحيم الحرب، ومن يريد أن ينفلت من المجاعة والبؤس. إنَّ الضيافة، كما قلت سابقاً، هشَّة وسريعة العطب وعرضية ومؤقتة، وتتحوَّل بسرعة وسهولة إلى عداوة عندما يشكُّ في طالب الاستقبال الذي لا نعرف من يكون، كما لا نعرف مقاصده، وقدرته على احترام قوانين وعادات بلد الاستقبال. إنَّنا نحيا الآن، في هذه الحالة المتمثلة في انقلاب الضيافة إلى العداوة.

الضيافة والعداوة كلمتان متضادَّتان، وغير منفصلتين في الوقت نفسه. والاشتقاق في هذا الجانب غنيٌّ بالعبر. للضيافة والعداوة أصل دلالي واحد. أصل المضيف (hôte) من (hospes)، وهو الشخص الذي يستقبل أو يقدّم الضيافة للغريب أو للأجنبي. ولكنَّ المضيف، يعني كذلك الذي يُستقبل (hostis)؛ أي الضيف. ويعني هذا اللفظ أولاً الغريب عن المدينة (civitas)، ثمَّ أصبح لاحقاً له معنى العدو المحتمل أو العدو السياسي. تفيد اللغة إذن هذا التقارب والتماس بين الضيافة والعداوة، حتى في تقابلهما ذاته. من هنا نفهم الحمولة الأخلاقيَّة والسياسيَّة والقانونيَّة القويَّة جدًّا التي تثيرها مسألة العلاقة بينهما. ألا يمكن أن تكون هنالك حدود للضيافة حتى لا تنقلب إلى ضدها؟ إذا كان الجواب نعم، فما هي هذه الحدود؟ وفي المقابل، إنَّ إنكار ورفض كلّ حدٍّ للضيافة، ومن ثمَّة الحديث عن ضيافة مطلقة ومن دون شروط (كما يرى ذلك دريدا)، ألا يعني ذلك هدماً لمفهوم الضيافة؛ وذلك برسم صورة للعالم، حيث لا وجود فيه للاختلاف بين أن يكون الإنسان بين أهله وذويه وفي بيته، وأن يكون عند غيره، عالم لا وجود فيه للأجنبي وللغريب الذي يجب استقباله؛ لأنَّ الجميع يكون بين أهله وفي بيته في كلّ مكان وحيثما وجد؟

وهكذا، إنَّ مفهوم الضيافة قد أصيب باللبس والغموض في الوقت الذي يُستدعى فيه، وفي الوقت الذي تحوَّل فيه إلى مفهوم مركزي. ومن هنا، لا يسعنا إلا العودة إلى السؤال المقدَّم والسابق على كلّ الأسئلة: ما الضيافة؟ هل تنتمي إلى حب الإنسانيَّة (philanthropie)؟ ألا تُعَدّ هشَّة أمام بُغض الإنسانيَّة (misanthropie)؟ وعلى كلّ حال، إنّنا ندرك أنَّ ما هو مطروح هنا هو صورة العالم الإنساني أو اللاإنساني الذي نريد أن نعيش فيه.

إنَّ المحاولة الفلسفيَّة المهمَّة للغاية في العصر الحديث، التي أجرت تحويلاً من العداوة إلى الضيافة، قد قدَّمها كانط في كتابه: (**مشروع السلام الدائم**) (Projet de paix perpetuelle)؛ وذلك ضمن أفق قانون

دولي خاص بالعالم الإنساني على المستوى القانوني/ السياسي، وفي إطار إقامة وتأسيس فيدراليَّة (لنقل بالأحرى كونفدراليَّة) لدول حرَّة ومستقلة وذات سيادة. وعليه، مهما كان المضمون والمحتوى، فإنَّ «القانون الدولي يجب أن يُحدَّ بشروط الضيافة الكونيَّة»[7]. وهنا، نجد أنَّ الضيافة لا تنتمي إلى المحبة الإنسانيَّة أو إلى الصدقة، وإنَّما إلى القانون؛ فما الذي تقتضيه وتتطلبه هذه الضيافة؟ «الضيافة معناها حقُّ كلّ أجنبي في ألَّا يعامل معاملة العدو في البلد الذي يحلُّ فيه، ما دام مسالماً. ويجوز للبلد أن يرفض إيواءه إذا لم يكن في ذلك ما يضرُّ بوجوده، ولا يجب التصرف بعداوة ضدَّه، ما دام لم يؤذِ أحداً».[8]

هنالك على الأقل اعتراضان أساسيَّان على هذا التصوُّر الكوني للضيافة:

أولاً: إنَّ هذه الضيافة الكونيَّة هي دائماً ضيافة قادمة، وتسكن في المستقبل، وليست أبداً ضيافة حاضرة، بما أنَّ القانون الدولي مثال للعقل الذي يجب أن يُسيّر ويُدبّر سلوكنا، ويبيّن لنا الوجهة التي يسير فيها التاريخ. ولكن، هل التاريخ يتوجَّه نحو الأفضل؟ وهل حقّاً له معنى؟ وهل يكمن هذا المعنى في التقدُّم؟ وإجمالاً، الضيافة بالمعنى الذي يراه كانط هل هي ممكنة؟ ومع ذلك، يجب أن نعترف، وذلك على الرغم من الانحرافات، والهوَّة التي وقع فيها تاريخ القرن الماضي إلى يومنا هذا، الذي يعيد النظر في فكرة تقدُّم الإنسانيَّة، بأنَّ هنالك معاهدات دوليَّة خاصَّة باللاجئين (على الأقل بطريقة غير مباشرة)، وحق اللجوء، ومن بينها معاهدة جنيف لعام (1951)[9]، التي تدخل ضمن الأفق الكانطي. مثال العقل أن يبيّن لنا الطريق أو الوجهة التي يجب علينا أن نسلكها، والتي يجب أن نريدها، على الرغم من السقطات والمنزلقات.

ثانياً: المضمون الضيّق لمفهوم الضيافة، ويظهر ذلك في حقّ العبور والزيارة والتجارة بين مختلف الأفراد والشعوب مهما كانت بعيدة؛ وذلك بحكم كرويَّة الأرض ودورانها الذي يسمح بإمكانيَّة التقاء جميع الناس. ولا تتضمَّن الضيافة الحقَّ في الإقامة، أو البقاء في بلد الاستقبال؛ لأنَّ هذا الحق يُعدّ جزءاً من الحقوق السياديَّة للدول. ولكن يجب الإشارة إلى أنَّ كانط بتقديمه هذا التصوُّر القانوني للضيافة لم يكن يتصوَّر قدوم هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين، ولم يكن حتى يتخيَّل ذلك، ولكنَّ الإمبرياليَّة والاستعمار هما على العكس

7- Kant, Emmanuel, Projet de paix perpétuelle, in Œuvres, vol.III, Paris, Gallimard, coll. «Bibliothrque de la Pléiade», p.350.

8- Ibid.

انظر كذلك: كانط، إيمانويل، مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، المجلس الأعلى للثقافة، ميراث الترجمة، القاهرة- مصر، 2005، ص60

- ملاحظة: ترجم د.عثمان أمين عبارة: (sans compromettre son existence) بعبارة: (إذا لم يكن ذلك ما يضرُّ بمصلحته)، ومن الواضح أنَّ كانط يتحدث عن الوجود المتعلق بحياة أو موت الضيف أو الأجنبي، وليس مصلحته التي قد تكون مصلحة اقتصاديَّة أو اجتماعيَّة لا ينطبق عليها بالضرورة قانون الضيافة. كما فضل استعمال كلمة (الإكرام) بدلاً من الضيافة.

9- حول هذه النقطة انظر الكتاب الآتي:

Denis Alland et Catherine Teitgen-Colly, Traite du droit l`asile, Paris, PUF, 2002.

من ذلك. إنَّ كانط برفضه حقَّ الإقامة، قد عارض كذلك تحويل الضيافة إلى الحق في الاستيلاء والغزو[10]. وإلى جانب ذلك، إنَّ الضيافة الكونيَّة مؤسَّسة بشكل أصيل مقارنة بالمواطنة المدنيَّة والجنسيَّة. إنَّها خاصيَّة الإنسان باعتباره مواطناً في العالم، ومؤسَّسة على علاقة الإنسانيَّة بالأرض، ومن ثَمَّ وفقاً لعلاقة ورابطة أكثر أصالة، وسابقة على كلّ تاريخ، في حين أنَّ الأمم هي نتاج التاريخ.

ولكن هل يمكن الأخذ بفكرة الشروط مهما كانت محدودة بالنسبة إلى الضيافة؟ ما المعنى الذي يمكن إعطاؤه للضيافة المطلقة وغير المشروطة؟ إنَّ الضيافة المطلقة قد صاغها جاك دريدا، وذلك من خلال تفكيك الميراث الديني والأخلاقي للضيافة والتصوُّر العالمي الذي قال به كانط، ومحاولة تجاوزه: «يجري كلُّ شيء وكأنَّ الضيافة غير ممكنة، وكأنَّ قانون الضيافة يحدّد عدم الإمكانيَّة هذه، وكأنَّنا لا نستطيع تخطيه وتجاوزه، وكأنَّ قانون الضيافة هو المطلق وغير المشروط والمغالي، وكأنَّ شرط الضيافة مطلوب منه أن يخرق كلَّ قوانين الضيافة، بما في ذلك الشروط والمعايير والحقوق والواجبات المفروضة على الضيف والمضيف، وللذي يعطي وللذي يستقبل»[11]. يبيّن دريدا بهذه الطريقة التناقض والترابط الداخلي بين قانون (بالمفرد) للضيافة المطلقة المتمثلة في استقبال الآخر غير المعروف أو المجهول أو الغفل، ولهذا الآخر من حيث أتى، ومن دون مطالبته في المقابل، أو فرض شرط عليه مهما كان، وبين قوانين (بالجمع) الضيافة التي تحدّد الحقوق والواجبات المشروطة دائماً، المتعاقد عليها بين المرحِّب والمرحَّب به، وبين المستقبِل والقادم، وبين المستضيف والضيف: «إنَّ هذين النظامين من القوانين: نظام القانون (بالمفرد) ونظام القوانين (بالجمع)، هما إذاً متناقضان وغير منفصلين. إنَّهما يتضمَّنان بعضهما بعضاً، ويستبعدان بعضهما بعضاً في آن واحد».[12]

لا يمكن لي هنا الدخول في تفاصيل هذا التناقض وعدم الانفصال. وفي المقابل، إنَّ كلَّ ما أود الإشارة إليه هو هذه الصعوبة الكبيرة في هذا التصوُّر الخاص بالضيافة المطلقة وغير المشروطة. ألا يمكن اعتبار هذا التصوُّر مصاباً بتناقض داخلي؟ لا يتعلق الأمر بمساءلة إمكانيَّة قيامه، وصيرورته الواقعيَّة، بما أنَّ دريدا نفسه يعرضه كمستحيل وغير ممكن، وكمستحيل ممكن؛ وذلك بحسب صيغة نلقاها عنده أيضاً في مستويات عديدة، ولاسيما ما تعلق بمستوى الصفح[13]. يتعلق الأمر بالأخذ في الاعتبار تناسق وانسجام دلالة

10- تحويل الضيافة إلى الحق في الاستيلاء والغزو ظهر جليّاً عند فرانسيسكو دو فيتوريا (1492) (Francisco de Vitoria-1546) بالنسبة إلى الهنود. انظر حول هذا الموضوع:

Zarka, Yves Charles, L`Inappropriabilité de la terre, Armand Colin, Paris, 2013

11- Derrida, Jacques, (invité par Anne Dufourmantelle), De l`hospitalité, Calmann-Levy, Paris, 1997, p.71

12- Ibid, p.75

13- حول مسألة الصفح، انظر:

Zarka, Yves Charles, «Le pardon de l`impardonnable: Derrida en question», Archives de philosophie, tome77, cahier 3/ 2014, p. 435 - 447

ضيافة بلا حد، ومفتوحة على مصراعيها، وتبدو أنَّها تنزع من الضيافة شرطها الرئيس، ألا وهو وجود المستقبل والمستضيف. كيف يمكن لي أن أعرض الضيافة على الآخر أيًّا كان، إذا كان فعل الاستقبال نفسه يلغي ذاتي أو خصوصيتي، ويلغي وجودي في بيتي؛ بل يلغي حتى نفسي أو ذاتي؟ ومع ذلك، إنَّ هذه الفكرة متضمَّنة فيما يسنده دريدا للضيافة المطلقة: «إنَّ قانون الضيافة هو القانون غير المشروط للضيافة غير المحدودة، وإعطاء الضيف كلَّ ما هو لي، وإعطاؤه خاصيتي، من دون أن أطالبه بأيّ مقابل، ومن دون أن يستجيب لأيّ شرط كان»[14].

ومرَّة أخرى (وكذلك الحال بالنسبة إلى الصفح)، إنَّ دريدا، الذي أراد تفكيك التقاليد التي تأصَّلت فيها الضيافة حتى ينظر في حدودها القصوى، قد أفرغ الضيافة من معناها، وذلك بمحو شرطها الأساسي ألا وهو: وجود المستقبِل، وبالتالي التمييز بين الذات والآخر، الذي يمثّل شرط الاستقبال.

14- Derrida, Jacques, De l`hospitalité, op.cit, p.73

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021